ربيعة ريحان

الصورة والتمثال..

(إهداء: إلى حنّا مينة... أستاذي...)

دفع الليل المجلل بالترقب بكل المخاوف نحو قلبي. تظاهرت بالتماسك والغفلة، واقتربت بضراعة أطوقها في مرقدها بذراعي، وهي مسجاة تحت اللحاف الملفوف في سكون. قلت لنفسي دون تروّ هذه ليلة أخرى طويلة، منذورة للأحزان والمواجع.

حدقت في وجه العتم المطبق، فبدا فراغ الحجرة عميقاً لا نهاية له. ناديتها من خوفي فأنّت، فشعرت أنني على حافة الفقدان.

سألتها:

ـ أتشربين؟

تململت وما ردّت.

أحسست طعم حبي لها فادحاً بلا قرار. أبقيت ذراعي مطروحة حولها. رفعت وجهي نحو وجهها الساجي الأليف، لثمت مكاناً فيه، وهمست بحرقة:

ـ أحقاً ترحلين؟..

حضنتها برفق، وأحسست جسدها مضغوطاً تحت القوة الهينة لذراعي. غمرني حزن وشعرت بلوعة.

نهضت بتباطؤ، وتراجعت زحفاً إلى الخلف. ركعت قليلاً في الحيّز الضيق بين مرقدينا، ثم دخلت الفراش، وجذبت فوقي الغطاء بإحكام وتكوّمت.

انتظرت أن أسمع غطيطها المتسارع المنظم، لكنها أطلقت تنهيدة عميقة حزينة.

سألتها بتحايل:

ـ ناديتني؟!

فتنهدت من جديد.

انقبض قلبي وهزته ريح البكاء.

ليال تمر من الأوجاع وصروف التهاوي. أشهد بفاجعية صداها، ولا أمل سوى أن أوزع بوحشة ابتهالاتي على مدار الوقت.

غمرت مدة وجهي بالغطاء، ثم أزحته. بدا أنها ليلة لن تكون كباقي الليلات. كان ذلك التعب الكسيح يجتاحني، وذلك الخدر الذي يعقب ضياع مقدار من الجهد والاصطبار.

غيرت من رقدتها فيما يبدو. سمعت برهة حفيف اللحاف، وكنت أغالب إلحاح النوم العنيد. خفت أن أنام، ففتحت عيني وتطلعت من جديد إلى الفراغ. غيمة قاتمة لا تخلو من شرار. تفقدت الأشياء في عتمات الزوايا وعلى الحيطان. اهتزّت خيالاتها في العماء. تنبهت إلى شيء لامع كامد تحت الضوء الكسول القادم من زجاج الباب. تخيلت صورتي بضفيرتين، وصورتها خلفي زاهية فرهاء. تذكرت التمثال. كان له ذلك الفوح العتيق. رائحة الأشياء التي يقفل طويلاً عليها، ولون خشبه داكن محروق، وتلافيفه وفراغاته مسودّة في ثقل. كانت تتأملني بعينين كليلتين وهي تقدمه لي مقلوباً على ظهره عند المساء، سمعت هتفتها الواهنة:

ـ هذا لك...

وهزّتني المفاجأة.

أخذته بحرص من بين ذراعيها المرتجفتين. لمست نعومته وسماكته، ووضعته لا أذكر الآن أين... قضيت وقتاً في حيرة،

أبحث عن تعليل مقبول، لماذا بهذا التسليم الذاوي تمنحني التمثال؟

مسحت برفق على أطرافها المتعبة، وظللت في صمت. عجزت عن أي قول أحمّله بعضاً من حرارة قلبي، وهذا الحزن الشامل الذي يمضّني، ويجثم بكل وطأته عليّ. كنت أعرف أي مقدار من الحرص والتعلق يشدانها إليه. أغضيت وانحنيت أسوي خلفها الغطاء.

ـ استريحي قليلاً...

كان ذاك كل ما استطعت قوله.

وددت رؤية التمثال مجدداً وللحال. أنرت المصباح الصغير، وجلست على طرف الفراش. بحثت بعيني عنه، كان مستلقياً خلفها قرب الجدار. سقط الشعاع الواهن عليه، فبدت كتلته الجامدة كثيفة وداكنة. لم يكن بمقدوري تحديد تفاصيله المنحوتة ببهاء، لكنني أحسست فوراناً داخلياً وانشداداً إليه.

أغمضت عيني أستعيد بائتلاق بعض التفاصيل. كنت أحلّق في البعيد، أستدعي بعض ما فات، وكان لليقظة في صمت آخر الليل طعم خاص، حزن مسحوب من الرهبة والألم والأسىٰ العميق، وجلال اللحظات التي تمضي بلا عزاء.

أطفأت النور، واستلقيت بلا غطاء.

سمعتها تتنهد. رجوتها مطايبة وبرغبة صادقة حنون:

ـ نامي قليلاً!..

وأغفيت...

بحس غير كامل، كانت الدندنة تأتيني كاسحة في هدأة الليل، متدفقة طيعة، تعرف طريقها إلى عمق القلب. دندنة تلاعب أوتار الحنجرة المثقلة برجفة السنين.

غالبت لذة الخدر الآسر الرهيب، واستعدت صحوي بالتدريج. حركت رأسي فتنبهت حواسي. كان الغناء يتنامىٰ سلطاناً في مملكة الظلام. سمعتها ترطن بمقاطع من أدوار قديمة لأم كلثوم. أخذني العجب. لم يكن غريباً عني عشقها للغناء، لكنني ما تصورت أنها تحفظ أشياء مما أسمع.

سألتها باندهاش دون أن أميل برأسي أو أنتظر الجواب:

ـ أما نسيت هذه الأدوار طوال هذه الأعوام؟!

كان صوتها الموجوع يسري برهبة مع العصب إلى سهوب القلب. ترنمت باللحن وحمىٰ الكلمات المسكونة بنار الهتك والمظالم وحرقة الحنين المروّع. تشكلت في فضاء خيالي امتدادات حية قدحت كالزناد. شعرت أنني أرحل إلى مكان بعيد مزروع في دمي، لكن غامض الصلة بي ومتشابك...

مضيت مشتتة بين فيض المشاعر وصدىٰ الكلمات...

كنت أزورها في الآحاد. يسحرني بيتها الهامد الدفيء، فأنطلق جرياً إليه. تغويني أشياؤه المزدحمة المترآكبة على الرفوف وفي الأركان، أو المعلقة بخيوط مجدولة إلى الجدران ومدلّاة. أقف من فرط إعجابي أتأملها طويلاً في صمت، وقد اسود بعضها بطبقات من الصدأ والغبار. تطول وقفاتي، فتتفقدني على عجل. تقترب مني إذا لم تكن رائقة وتنهاني خوفاً من العبث أو الإتلاف، وحين لا يكون هناك شيء يشغلها ذو بال، كانت ترد على أسئلتي الفائضة بالدهشة والفضول ببطء مقصود.

كنت أسألها مستعلمة:

ـ هل باعوك هذه الأشياء؟!..

وأهتز اندهاشاً عندما أسمعها تخوض في تواريخ وأيام، وهي تشير إلى أشيائها بثقلها المكين، مرايا وساعات وشمعدانات ولوحات وتماثيل، تحف دقيقة متلاحقة تفتن العين. أنتزع قدمي من أمامي بصعوبة بالغة، وترتفع يدي مرة بعد مرة، تلمس ما تطوله، وأنا أكابد حيرة ذاهلة كبيرة. كنت أسأل نفسي بعدوانية وحسد:

ـ لم وهبوها كل هذا؟!..

وأخفض عيني كي لا تقرأ ما بهما. وأنا أشعر بندم خائف طفيف.

جاءتنا في رواء من الشباب ذات يوم بعيد. ابتهجت بالإعلان عن نفسها، وجلست بتباه رزين. حملتها اللهفة ووجع الوحدة. فرحت بالقربىٰ التي انبثقت من صدىٰ الأحزان والسنين، واحتمت بقرابتها البعيدة لأمي، ولذكرىٰ أيام قضتاها في قريتهما النائية المنعزلة.

سألتها أمي متحرجة وبعطف:

ـ وأين رحت طوال هذه السنين؟

حكت المرأة بالتياع أشياء عن وقتها المضني ووحدتها المريرة، وصارت شظايا الماضي تلوح بذلك التواتر الجارح،

فأدركت أمي أي خلل في مجرىٰ الأيام وأي شتات.

ودار بينهما الكلام...

شيء من الثرثرة والحركة والتسليات. خطوة إلى الأمام من الاهتمام الشجاع.

قالت لها أمي مرة:

ـ وزوجة أخيك، كيف تركتك ترحلين وتضيعين؟

وكان التكشف بغير حرص، والغوص في قبضة الاستباحات وانقطاع الأسباب، وعرفت أمي كم كان جلفاً وحيوانياً أخوها الذي لم يكن لها في الدنيا غيره، وأنهما ـ أخوها وزوجه ـ في ذلك الزمن التائه الضنين سقطا في سعار الغل من شقاء الكدح الذي لا يأتي باللقمة المُرَّة، فتخلصا منها بالمقت والضراوة والعذاب المكين.

ـ كانا يضرباني ويتركاني بلا أكل لأيام...

لكأنها لم تنفصل عن أمي لحظة واحدة، ولكأن الحديث العابر الذي هداها إلينا، والذي استمسكت به، بالدموع ووجع الشوق، انتفت به وحشة التطوح في الأمداء القاسية الكريهة التي جابتها لسنين، وصارتا تستعيدان مرأى الصبيتين كما كانتا عليه ذات يوم.

فتحت بئر أسرارها الغائر الدفين. لحظة من اللحظات النادرة. تجردت فيها تحت حرقة الدمع وقلب أمي الأبيض الطيب.

ـ هربتُ. عرضت نفسي لقهر لا يحتمله جسمي الصغير، قالت.

طوحت في المدىٰ الموحش العاري، حيث لا شيء إلا السراب يعكر صفاء الفضاء المديد، وأصوات طويلة معربدة تسري مع الريح الهاربة في العراء الذي لا حدّ له.

وفي صبيحة بعيدة، وكان قد مضىٰ على تطوافها أيام، أدركتها المدينة البحرية الصغيرة، فدخلتها بقدميها الحافيتين السوداوين، وكانت طقوس الاستكشاف موجعة، تقود في توغل إلى منعرج زمنها المستباح ببراءته وانفراده، وحرمانه الذي ليس بعده حرمان.

ـ كنت أبكي على قارعة الطريق، فأخذتني إلى بيتها امرأة..

وكان الاستدراج الملبّس، المنطوي على أسرار الاحتراف المتقن، النافذ الأثر، قد حطّ بها في عتمة ذلك البناء، الطافح باللغط والحركة والأنغام والآثام والعطونة في الزوايا والسفلس..

دخلته من بوابته الحجرية الكالحة، وهبطت درجاته القليلة كي تستقر على أرضيته المشبعة بالليل.

قالت لأمي بما يشبه الهمس:

ـ تعلمت هناك أشياء كثيرة، إلا الدخان والخمر، أبداً، لم أقربهما..

فرحت بمعرفة الصبية وسذاجتها بالشبع والوفرة، وكانت مباحة ومشتهاة...

وإذ تكشفت مع الزمن ينابيع الفرحة/ المعصية كما استشعرتها، والنهش الجشع في القلوب وبياض السرائر، تبخرت النشوة، وعرشت الحسرة في الحنايا الخبيئة.

وكان أغرب ما حكته لأمي، وبكتمان أوفر، عبورها البحر في مسعىٰ الصلف كما أُريد لها ولسواها من الأجساد الطرية الغضّة.

كن أدوات المتعة المرحَّلة لشبق الرغبات المثقلة بالكبت القسري إلى ما وراء البحر.

سألتها أمي بما يشبه الإنكار:

ـ أخذوكن فعلاً؟!.. وأين قضيت كل هذه المدة؟!..

شهران من الاكتساح والانسفاح، وتلاطم الموج العالي على جنبات الباخرة القويّة، وإذ أعادوهن بعد حزن وانتظار، كان في داخلها ذلك الانكسار الذي لا تدري كيف تخلّق فجأة.

بعدها بزمن لا تستبينه، وكان قلبها قد قوي شيئاً، وعرفت معرفة ناقصة دواليب الحياة الملتوية قررت ترك الماخور.. انزرعت في ذهنها حكاية الشغل في البيوت، وكانت رحبة وباذخة أيامها، البيوت التي شغلتها. أسر فرنسية ويهودية، ولا تذكر أنها اشتغلت عند سواها...

قالت لأمي في وقت متأخر وبحسرة:

ـ كنت وأنا أشتغل أغني وأرقص، وأحببت الكثيرين منهم وأحبوني!.

وتذكر أمي آخر عائلة يهودية شغلتها ورحلت إلى القدس، وأشياءها اللامعة الكثيرة التي خلفتها.

وأذكر ولا أنسىٰ مواويلها في الأمسيات البهيجة بهجة لا توصف، بلغة لا أفهمها تماماً، وقدر من النشاز أستهجنه، وعرفت أنها حفظتها من أفواه اليهوديات لحظات التجرد

المطمئن، بموسيقىٰ ضاجة...

في تلك المساءات البعيدة، بعد أن جاءتنا، كنا معاً ـ أنا وهي ـ نمارس تواطؤاً خفياً ونحن نوغل نحو تقارب متواشج. كنت أغفوعلى صدىٰ حديثها وأحجياتها، وذلك النبض الصادم الفوار من التشوف والوداد، وصارت في حنايا صدري، وامتلأت أيامها بي...

كنت أسبح في غمرة الاستذكار. مخدرة الحس، مجتاحة بحافز لاعج من وقْد أذكاه الغناء الموحش الحزين، وكنت أشعر بضنىً فاتك، إذ وجدتني مشدودة دفعة واحدة إليها، من عمق ابتعادي وسهوي، لاحقة بآخر كلماتها التي كانت تطلع بخفوت ووهن:

ـ ...أم لم يعجبك؟!..

والتفت. كان عليّ أن أجيب. لكن كان في الأمر التباس.. هل حديثها كان عن التمثال أم الغناء؟..

كان وحده هو ما تبقىٰ... قطعها التي سحرتني، باعتها واحدة إثر أخرىٰ. ركام الأشياء ذاك، الإغراء المستبد الذي كان يجعلني بعض الوقت أقف مكبوحة بلا حراك، أبتسم بمتعة التوتر والعجب.

قلت دون أن أستوثق بالتحديد عمّ كان السؤال:

ـ طبعاً، أعجبني كثيراً..

وكنت لا أزال راغبة في استعادة صدىٰ تلك الأيام..

رويداً، انتبهت إلى تخايل النور عبر الشقوق. كان الليل يرحل، وما حولي يعاود الظهور برفق، فرحت مدة أرمق فراشها المرتفع الداكن. وإذ لم يعد بمقدوري أن أنام، طرحت الغطاء عني وخطوت إلى الزاوية القصية، حيث يرقد التمثال. لمست صدره البارد الناهد. أمسكت أطرافه ثم تركته وتحولت عنه إلى الصورة. بدا وجهي ووجهها الثابت القسمات كأنهما خلف غمامة شاحبة بيضاء... توقفت فترة بينهما. كنت سأسألها لماذا وهبتني التمثال، ثم عدلت عن ذلك وسألتها بحرقة:

ـ لماذا الليلة بالذات؟!..

ولم تتكلم...

فارتعد قلبي من الهاجس المجنون.